

المحاضرة (١٧)

اتجاهاتها الشعرية

عني شعراء أبولو عناية فائقة بمضمون القصيدة، وتجلت هذه العناية في مجموعة من الاتجاهات التي تهدف إلى العناية بالإنسان، وتصوير عواطفه وتجسيد مشاعره، واحترام حرئته، كما تسعى إلى تحقيق نزوعه إلى التأمل، وتفسير لجوئه إلى الطبيعة وإلى تأكيد نزعته الإنسانية. وقد حققت هذه المضامين طموحات هؤلاء الشعراء في تطوير فكر القصيدة العربية، والسعي إلى هجر الموضوعات القديمة التي اقتصرت على المعاني المتداولة. ويستطيع الدارس لشعر هؤلاء أن يضع يده على مجموعة من الاتجاهات الشعرية وأهمها.

الاتجاه العاطفي والاتجاه التأملي والاتجاه الوصفي.

الاتجاه العاطفي

وتهدف قصائده إلى التعبير عن ذات الشاعر وتجسيد عواطفه في الحب، وشعوره بالضياغ، والسعي وراء الأحلام والبكاء على ما ضاع منها وتعثر. وحديث الشاعر عن نفسه، والاستسلام لأحلامه الضائعة وطموحاته البعيدة، أسلمته إلى الحزن واليأس والتشاؤم، وانتهت به إلى القنوط والانطواء والهروب ووصف الهواجس النفسية. وتقترب قصائد هذا الاتجاه من الاتجاه الرومانسي الحالم الذي شاع في أوربا إبان القرن التاسع عشر. ووصلت طلائعه إلى شعر جماعة الديوان. وبخاصة عبد الرحمن شكري الذي مهد لشعراء أبولو بهذا التيار الوجداني الفردي العاطفي (ويبدو ان المضمون الرومانسي أو الوجداني لشعرهم، لم يستنفد ما في نفوسهم من حزن والم وحنين وطموح مضطهد، فلجأوا إلى التعبير الرمزي ليشغل لهم المناطق المظلمة في نفوسهم، وهم يسبرون غورها ليوحوا إلى القارئ بما فيها من المعاني التي لا يمكن إدراكها إلا عن طريق الرمز والإيحاء).

وعلى الرغم من أن شعراء أبولو لم يتمذهبوا بالرمزية على غرار هذا المذهب في أوربا إلا أن بعضهم قد التمس هذا الأسلوب حين وجد اللغة المباشرة والصورة الحسية عاجزة عن تجسيد مشاعره العميقة وعالمة في الأحلام والرؤى، وما يحتدم في نفسه من عالم اللاشعور. وكان إعجابهم بما قرأوه للشعراء الرمزيين وفي مقدمتهم بودلير وملارمي، واعجابهم أيضاً بمجموعة من شعراء المهجر الذين سبقوهم إلى هذا الاتجاه، كل ذلك قد حدا بهم إلى أن يسلكوا طريقه سعياً إلى الكشف عن أعماق مشاعرهم وتجاربهم.

وهكذا راح أبو شادي وناجي والهمشري والشابي وحسن كامل الصيرفي ومحمود حسن إسماعيل وغيرهم يركبون صعاب هذا الأسلوب ليشكل في شعرهم ظاهرة من أشد ظواهره الفنية. ولعل قصيدة أبي شادي (بحر السماء) تستطيع أن تؤكد هذه الظاهرة ويقول فيها:

من نومي على قلق من الأضواء
إلا حديث الموج والدماء
لا ترضى بهذا لحظة لندي
كتلفت الأطياف للشعراء
لهف كوثب الموج فوق الماء
كالخيل في ركض وطول عناء
فالدهر قاس دائماً ومرآثي
حلمي وأنفاسي ووحى رجائي

هتفت بي الأضواء فاستيقظت
ونظرت في أفق السماء فلم أجد
السحب تجري في اصطخاب الموج
ناديتها، فتلفت، لكنه
لا تستقر هنيهة وتسير في
وكانما الزمن العجيب يسوقها
تخشى سياط الدهر يجري خلفها
وتغيب في بحر السماء كما مضى

ولا خلاف في أن الشاعر في هذا النص، قد قصد إلى تصوير حالته النفسية من خلال الرمز الذي أضفى رقة وجمالاً وسحراً عليه، خصوصاً في ما حققه الإيقاع اللفظي الذي صنعه مجموعة من العبارات الموحية المشعة، من مثل (الأضواء) و(أفق السماء) و(حديث الموج) و(اصطخاب الموج) و(تلفت الاطياف) و(سياط الدهر). وغيرها من العبارات والالفاظ التي تحتشد احتشاداً لطيفاً مقصوداً. وكذلك من ما حققته الابيات من وحدة عضوية ترتبط بخيط فكري لا تكاد النفس اقع عليه في بيت أو بيتين، وإنما تستشعره من صور القصيدة كلها. وقد حقق هذا الابهام الرمزي جواً نفسياً قصد إليه الشاعر قصداً ليوحى به إلى القارئ بحالته النفس المحطمة، وليشعرنا بكل ما يعانیه من تمزق.

والواقع ان الرومانسيين قد قصدوا بهذا المرز، إلى التعبير عن مكونات نفوسهم التي اكتوت بنار الحب التي كانت لهم فيه تجارب عائرة، ومن هنا كانت عميقة الأثر في حياتهم بحيث أن اللغة المباشرة لم تعد قادرة على التعبير عن جراحات قلوبهم التي أدقتها تجاربهم الفاشلة وحظوظهم العائرة.

وعلى الرغم من أن كثيرين من شعراء ابولو قد استخدموا الرمز، تعبيراً عن مواجدهم العاطفية، إلا إن شاعرين اثنين منهم قد شكل لديها هذا الرمز ظاهرة وتياراً ملحوظاً، أولهما إبراهيم ناجي وثانيهما محمد عبد المعطي الهمشري.

والذي يهمننا من هذا الرمز، هو أنه قد مثل في القصيدة العربية الحديثة تياراً جديداً، بما حققه من استخدامات جديدة في الألفاظ والعبارات والتراكيب والصور، وبما طوره في علاقات الألفاظ في المجاز والاستعارة والكناية وغيرها من صور البلاغة، فقد أفاد شعراء أبولو من نظرية تراسل الحواس التي شاعت لدى شعراء الرمز، وهي النظرية التي تتبادل في ظلها الحواس، كأن تتجاوب الألوان والعمور والأصوات.

أن الاستعمالات الجديدة التي حققها شعراء أبولو جراء استخدامهم أسلوب الرمز، قد أغنى لغة الشعر وتصويره بما لم يستطع أن يحققه حتى شعراء الديوان الذين مهدوا لهذا التيار، وحققوا للقصيدة العربية الحديثة كثيراً من الثراء. وكان نتيجة هذا، استخدام شعراء أبولو الكثير من التعبيرات الجديدة والتراكيب الغريبة، من مثل: (حلم الخيال) (رياض من الخيال) (أشعة المساء) (ضفاف الخيال) (أشعة المساء) (دهاليز الظلال) (الازهار تحلم في الليل) (معبد الخيال) (ألفق الوضيء) (معبد الاحزان) (غياهب الروح) (طلول الحياة) (عالم الشتا) (المساء يسرق عطراً) (الدفء المنور) (طيوف الجمال) (خيمة الفتاة) .

وقد اقتصر هذا الاتجاه العاطفي على تجسيد التجارب الذاتية الفردية، وذلك لأن تيار الرومانسية العربية بالذات قد طبع بهذا الطابع الفردي، لأن تجارب الشعراء العاطفية قد تعثرت عند معظمهم، ومن هنا انشغل كل منهم بنفسه يعالج حظه العاثر في الحب وقد انكأ كل منهم على نفسه يبكي ما آل إليه مصيره، وانتهت إليه حياته، حتى تحول لدى كثيرين إحباطاً نفسياً شديداً، ويقف ناجي في مقدمة من نزعوا هذه النزعة.

وإذا كانت تجارب شعراء أبولو العاطفية، قد انتهت بهم إلى الفشل والشعور بالملل من الحياة، جراء تعثر الحب، فإن ذلك قد دفع ببعضهم إلى أن يلجأ إلى المرأة. يرمي نفسه بين احضانها والاستمتاع بها استمتاعاً حسيماً، ظناً منهم أن في هذا تعويضاً عن إحباطهم في تجاربهم. ومن هؤلاء صالح جودة وعلي محمود طه وحسن كامل الصيرفي غير ان هذا لم يشكل ظاهرة كتلك التي جعلت من الحب نزعة مثالية ترتفع بفكرة الحب إلى التسامي والمثالية، لذلك فإن التعبير عن تجارب الحب عند هؤلاء ظل متسامياً سمو الحب العف الذي خلق بشعر الجماعة إلى المثالية وسماً بها سمواً لا نظير له في شعرنا العربي الحديث.

الاتجاه التأمل:

لم يقف تعبير شعراء أبولو عن تجاربهم العاطفية، بينهم وبين تطلعهم إلى التأمل والتفلسف في الحياة والكون والطبيعة.

وربما كان ارتفاع تجاربهم العاطفية إلى مرتبة السمو في الحب، هو الذي قادهم أحياناً إلى التأمل، ليكتشفوا به ذواتهم.

وعلى الرغم من أن التأمل بالشعر قد شاع عند العرب في عصورهم المتقدمة خاصة، وأنه قد شكل ظاهرة ملحوظة في شعر جماعة الديوان وشعر شعراء المهجر، إلا إنه قد خلق في شعر جماعة أبولو ظاهرة لا تخلو من الجفاف العقلي وربما كان للتدفق العاطفي الذي لازم شعر هذه الجماعة هو الذي خفف من هذا الجفاف الذي ألمحنا إليه.

وقد تلون شعرهم التألمي بالقتامة، وتميز بالتشاؤم وتلفع بالسواد، وعبر عن حيرة نفوسهم وتمردهم على الحياة وعلى المجتمع، وربما قادهم إلى الاستسلام في آخر الأمر كما حدث لعبد الرحمن شكري من قبل.

فهذا هو محمد عبد المعطي الهمشري، يعبر عن حيرته، وتيهه في صحراء الحياة فيقول:

إنما نحن كوكب ضل
قد نسينا كل ما كان لنا
في تيهه صحراء مقوم تائهين
وتركنا في غد ما سيكون

وينتهي التفكير بالموت بالشاعر صالح جودة إلى الحيرة ثم الشك:

قد حرت في الموت وفي أمره
وكلمنا سألت عن أمراً
وما زاد الله في سوره
أجابني والله لأم أدره
فلم يقول الناس مات امرؤ
أن هاجر لدينا أليس قبره؟

وربما كان مبعث تأملهم، قلقهم الاجتماعي، وتمزقهم النفسي، فقد كان شعراء أبولو كأمثالهم من الشعراء الرومانسيين، يكثرون الخلوة إلى أنفسهم ويهدئون مع هدأت الليل يفكرون وقد قادهم تفكيرهم إلى مناقشة الظواهر الكونية التي لم تتسعها عقولهم، فيحارون ما يفعلون، وربما كان السبب في هذا، فضولهم العقلي وتأملهم الفلسفي إزاء الخلق والطبيعة واللون وما يتصل بها من حياة وموت، مما لا يستطيعون لها فهماً، أو إلى حقائقها وصولاً.

ويتزامن مع هذا التأمل خيبة آمالهم الشديدة، وضياح أحلامهم الواسعة، حتى ينتهي بهم ذلك إلى إحباط وشعور بالملل واليأس. لذلك كثر حديثهم عن كل هذه المعاني التي جسدها بأفكار متشابهة المواقف، وكلها تأمل في الحياة والاحياء والطبيعة وأسرار الوجود ومصير الانسان إلى الفناء والموت.

ومن هذه القصائد (بين الحياة والموت) لمحمد عماد، و(شاطئ الاعراف) لمحمد عبد المعطي الهمشري. و(اللغز) لحسن كامل الصيرفي. و(السعادة) لأبي القاسم الشابي. و(أنت الله) لصالح جودة. و(وحدة الوجود) لرمزي مفتاح. و(الخلود) لآحمد زكي ابي شادي. على أن هذه الروح الشاكية المستسلمة، قد قابلتها مواقف حادة عبر بها الشعراء عن ثورتهم وتمردهم، وهي مواقف ربما تأنت من قلقهم وحيرتهم، فراحوا يناقشون ويرفضون ويحتجون على ما لا تقنن به عقولهم أو تنس إليه نفوسهم.

وتقف قصيدة (الراهب المتمرّد) لصالح جودة في مقدمة هذا التيار الثائر الذي ينزع

منزعاً سلبياً إزاء حقائق الحياة والكون والخلق والطبيعة.

والقصيدة تمثل تمرد الشاعر على الطقوس والعبادات، وتشككه من الموت وهو موقف قاده- كما ذكرنا- قلق الشعراء إزاء الحقائق الكونية وأسرارها الدقيقة. وقد سبق إلى مثل هذه المواقف شعراء الديوان مثل عباس محمود العقاد في قصيدة (ترجمة شيطان) وعبد الرحمن شكري في قصيدته (المجهول) كما فعل ذلك جبران خليل جبران في قصيدته الشهيرة (المواكب). وعلى أية حال فإن هذا الاتجاه التأملي قد شكل في شعر جماعة أبولو ظاهرة ملحوظة، بما أضفى عليها من مواقفه النفسية وتأملاته الفلسفية. وبذلك تعود القصيدة التأملية إلى أدبنا العربي، كما كان لها شأن لدى العديد من شعرائنا القدامى.

الاتجاه الوصفي:

ربما يكون هذا الاتجاه من أشد الاتجاهات شيوعاً لدى شعراء أبولو لأنه يمثل في الشعر الرومانتيكي العالمي كله اتجاهاً متميزاً ملحوظاً بتلك الأصالة. ولنا في ما تركه شاتو بريان وورد زورث وأمثالهما من شعراء البحيرة نماذج إنسانية كتب لها الخلود. وشعر الطبيعة في أدبنا العربي، قديم قدم الأدب نفسه، شعراء أبولو قد تناولوه تناولاً جديداً. حين حققوا الصلة بين مظاهر الطبيعة وبين نفوسهم، واستوحوا هذه المظاهر تعبيراً عن حالاتهم النفسية المختلفة، بل إنهم ما وصفوا الطبيعة إلا لكي يعبروا بها عن حالاتهم ومواقفهم. وفي هذا الاتجاه، رسموا الصور الجديدة وحققوا المعاني المبتكرة، وبنوا قصائدهم بناءً خاصاً يتفق مع تجاربهم الشعورية.

وعلى الرغم من أن قرائح شعرائهم قد تدفقت في موضوع وصف الطبيعة، إلا أن زعيمهم أبا شادي، يقف في موقع القمة بينهم. حتى أن أحد الدارسين، قد جمع قصائده الوصفية في كتاب اسماء (الريف في شعر أبي شادي) وهذه القصائد تعكس موقف الشاعر من الريف الذي أعجب به، وأنشد إلى مظاهره الطبيعية، كما أعجب بأبنائه وبنشاطهم وحيويتهم.

وموقف شعراء أبولو من الطبيعة. متفق مع مواقف كل شعراء الرومانتيكية الأوربية والعربية فهم لم يجعلوا من هذا الوصف غاية ينتهون إليها، وإنما هي وسيلة للتعبير عما تجيش به خواطرهم. ويختلج في نفوسهم وربما لجأوا إليها للتخفيف من اعباء مجتمعهم الذي قسا عليهم ووقف بينهم وبين تحقيق أحلامهم وتجسيد طموحاتهم. لذلك لم يجدوا خيراً من الطبيعة ينشدون في ظلها السلوان والعزاء، ويبثونها أحزانهم، وينظرون بين مناظرهم ومشاعرهم. فحديثهم عن هيجان البحر، أرادوا به تجسيد ما يضطرب في نفوسهم من ثورة وتمرد، ونشدانهم فصل الخريف قد صوروا به مرض نفوسهم وأقول حياتهم.

ومن هنا كان ولعهم بوصف الطبيعة إذ (أصبحت الحرم المقدس الذي يلجأون إليه في ابتهالات روحية ضارعة، فوجدوا في أحضانها زاداً ورحمة وحناناً لا يكاد يخلو شعر واحد منهم

من ذلك الغناء الروحي الخالص للطبيعة، التي تكون في كثير من الاحيان متنفساً لآحزان النفس وتعويضاً عن فشل في التكيف مع واقع الحياة وصراعات المجتمع ودنيا الناس^(١) وخير ما يمثل هذا الغناء الروحي الخالص قصيدة إبراهيم ناجي، الذي استوحى البحر تعبيراً عن حالته النفسية الممزقة، وتجسيدا لشعوره بالضياح، وإحساساً بتفاهة الحياة. يقول مناجياً البحر:

قلت للبحر إذا وقفت مساء	كم اطلقت الوقوف والاصغاء
إنما يفهم الشبيهه شبيهها	أيها البحر نحن لسنا سواء
أنت عات ونحن حرب الليالي	مزقتنا وصيرتنا هباء
وعجيب إليك يمت وجهي	إذ مللت الحياة والاحياء
ويح دمعي وويح ذلة نفسي	لم تدع لي أحداثه كبرياء

المصادر:

١- جماعة أبولو

٢- الريف في شعر أبي شادي، محمد عبد الغفور:

٣- مقومات الشعر العربي الحديث، محمد حامد شكوت

(١) مقومات الشعر العربي الحديث محمد حامد شكوت/ ٢٦٩.